خواطـــر

للأستاذ فليكس فارس

لا أعلم ماذا عنى واضع تعبير الشعر المنثور ، ويخيل إليّ أن هذا الترتيب المستحدث فى اللغة العربية إنما ترجم حرفيًّا عن « ڤير ليبر » بالفرنسية ؛ غير أن المترجم النوى عليه المعنى لظنه أن كلمة « ڤير » تترجم بكلمة « شعر » فى حين أنها لا تعنى إلا المنظوم من الكلام بوزن وقافية . ولا أرى فى العربية ما ينطبق على هـذا التعبير الفرنسى إلا « النظم المنفرط » أو حل الشعر وإطلاقه من وزنه وقافيته لإرساله نثراً ، وذلك ما يكلفه التلامذة لتسهيل فهم الشعر عليهم ولتعويدهم سبك المعنى الواحد على صور متعددة .

أما « الڤيرليبر » فى الأدب الأوربى فليس إلا بدعة جاء بها المتأخرون كما جاءوا بأنواع الرسم المكعب والشعر المستغرق فى الرمزية ، وما هى على ما أعتقد إلا ظاهرة لتقلص الأعصاب فى المدنية الحديثة

وإنى لأعجب للأدباء فى الغرب يضمون كلمة « ڤير ليبر » ولا يفطنون لما فى مبناها من التناقض ، فإن النظم مقيد إلزاماً ، فإذا أطلق من أوزانه خرج عن صفته وأصبح نثراً

إن البيان من الفكر كلام ، ومن العواطف نغمات ؛ والنظم معلق بين الكلام والنغمات ، يتناول من الأول نتاج الفكر ، ومن الثاني خطرات الهوى ؛ غير أنه أقرب إلى القلب منه إلى الدماغ ، لأنه لا يقوم على حجة ودليل ، بل يخاطب ما انطوى فى السرائر وما يطمح الناظم إلى وضع مقدمات لاستخراج ما يريد استهواءك إليه ؛ إذ حسبُه من بيانه أن ينفذ إلى ما استتر فيك من مقدمات إن خلت سريرتك منها انزلق عليك بيانه فإذا أنت ضاحك من بكائه ، مستهزئ بشجوه وتحنانه

ما النظم المنثور الذى يسمونه شعراً منثوراً إلا بيان حائر ، بل هو جنين تمخض به الخيال وضعف عن مدّه بالتكامل فلفظه مسخاً لا يصلح للحياة

إن للنثر أوزانه الخفية وبحوره التى لا ساحل لها ، وللنثر الناضج موسيقاه المطلقة كأمواج البحر تتتالى ولكل موجة شكلها وتعاريجها . ذلك لأن خطرات الفكر تبعث لا يتكرر على وتيرة واحدة فى الدماغ ، فى حين أن النظم وهو صورة نبضان القلب لا يطلق موسيقاه إلا على نظام الوحدة فى تكرار ضرباته

ولعلك إذا نظرت إلى هذه الأشرطة التى تطبع عليها كهرباء القلب صورة خفقاته يدهشك منها ما تمثله لديك من أبحر الشعر فى أنواعها ، فمن القلوب ما تنبسط على الرسم البحر (الطويل) فى هدأتها ، ومنها ما تصور البحر (المتدارك) فى ثورتها ، ومنها ما حلا لها كبعض أدباء هـذا الزمان أن تمسخ نظمها نثراً فتراها تأتيك بالطويل والقصير والرجز والمتدارك متداخلة متراكبة ، ومثل هذه القلوب قد استفتيت كهرباءها وآذن اختلالها بقرب انصداعها

* * *

من غرائب التقليد فى هذا الزمان أن يترجم لنا بعض أدبائنا قصائد أو مقطوعات من منظوم الفرنجة فيأتوا به صورة طبق الأصل فى ترتيب السطور ؛ فهم يصلون الجملة حيث يجب قطعها ، ويقطعونها حيث يجب وصلها ، جرياً مع الناظم الذى حكم الوزن والقافية على ترتيبه ، وهم لا يفطنون إلى أنهم مطلقون فى ترجمتهم من كل وزن وقافية

ما وقع نظرى مرة على هذه المنظومات المترجمة وقد كتبت بشكل قصيدة وليس فيها من إلزامات القصائد شيء إلا وحسبتنى أرى سابحاً يخرج من البحر ويستر على دفع الهواء بيديه كأنه لا يزال يسبح على اليابسة ويخشى الغرق ورجلاه ثابتتان عليها ...

وأغرب من هذا ، بل وأنكى ، أن تقرأ لبعض المجددين ... شعراً منثوراً ... تتوالى سطوره وفى كل سطر أربع إلى سبع كلمات نضدت على سلك لا وجود له إلا مخيلة الكاتب ؛ فهو مضطر ولا أدرى لماذا ، أن يقطع جملته إذا بلغت الخمس أو السبع ليستطرد الكتابة فى السطر الثانى ، وليس يوسعه أيضاً أن يقف بجملته حتى يتم معناها إذا كان لم يزل لديه متسع من القياس الذى انطبع فى ذهنه من تلاوته قصيدة درجت على هذا الشكل عن أحد كبار الشعراء

وقى الله الأدب العربى من آفات التقليد والمقلدين !

« الاسكندرية » فليكس فارس